

عناصر المجتمع في القرآن الكريم/ ج (2)



«قلنا في ما سبق انّ اكتشاف الأبعاد الحقيقية لدور الدين في حركة التاريخ، والمسيرة الاجتماعية للإنسان، تتوقف على تحديد وتقييم دور العنصرين أو الركنين الثابتين في الصيغة، وهما الإنسان والطبيعة.

الآن نتحدث عن الإنسان، ودور الإنسان في الحركة التاريخية من زاوية مفهوم القرآن الكريم.

من الواضح على ضوء المفاهيم التي قرأناها سابقاً أنّ الإنسان أو المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ، وأننا ذكرنا أنّ حركة التاريخ تتميز عن كلّ الحركات الأخرى بأنّها حركة غائية لا سببية فقط، ليست مشدودة إلى سببها، إلى ماضيها، بل هي مشدودة إلى الغاية، لأنها حركة هادفة لها علة غائية متطلعة إلى المستقبل. فالمستقبل هو المحرك لأي نشاط من النشاطات التاريخية. والمستقبل معدوم فعلاً وإنما يحرك من خلال الوجود الذهني الذي يتمثل فيه هذا المستقبل.

إذن، الوجود الذهني هو الحافز والمحرك والمدار لحركة التاريخ، وهذا الوجود الذهني يجسد من ناحية جانباً فكرياً وهو الجانب الذي يضم تصورات الهدف، وأيضاً يمثل من جانب آخر الطاقة، الإرادة التي تحفز الإنسان نحو هذا الهدف وتنشط للتحرك نحو هذا الهدف. إذن هذا الوجود الذهني الذي يجسد المستقبل المحرك، هذا الوجود الذهني يعبر بجانب منه عن الفكر وفي جانب آخر منه عن الإرادة، وبالامتزاج بين الفكر والإرادة تتحقق فاعلية المستقبل ومحركيته للنشاط التاريخي على الساحة الاجتماعية.

وهذان الأمران: الفكر والإرادة هما في الحقيقة المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان، إنّ المحتوى الداخلي الشعوري للإنسان يتمثل في هذين الركنين الأساسيين وهما الفكر والإرادة. إذن المحتوى الداخلي للإنسان هو الذي يصنع هذه الغايات، ويجسد هذه الأهداف من خلال مزجها بين فكرة وإرادة

وبهذا صحّ القول بأنّ المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس لحركة التاريخ، والبناء الاجتماعي العلوي بكلّ ما يضم من علاقات ومن أنظمة ومن أفكار وتفاصيل، هذا البناء العلوي في الحقيقة مرتبط بهذه القاعدة، فالمحتوى الداخلي للإنسان مرتبط بهذه القاعدة ويكون تغييره وتطوره تابعاً لتغيير هذه

القاعدة وتطورها، فإذا تغير الأساس تغير البناء العلوي، وإذا بقي الأساس ثابتاً، بقي البناء العلوي ثابتاً.

فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي والتاريخي للمجتمع، هذه العلاقة علاقة تبعية، علاقة سبب بسبب، هذه العلاقة تمثل سنة تاريخية تقدم الكلام عنها في قوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ وَمَا يَقْوَمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرَ رُؤُوسَ مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد/ 11). هذه الآية واضحة جداً في المفهوم الذي اعطيناه وهو أن المحتوى الداخلي للإنسان، هو القاعدة والأساس للبناء العلوي، للحركة التاريخية، لأن الآية الكريمة تتحدث عن تغييرين: أحدهما تغيير القوم (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ وَمَا يَقْوَمُ) يعني تغيير أوضاع القوم، شؤون القوم، الأبنية العلوية للقوم، طواهر القوم، هذه لا تتغير حتى يتغير ما بأنفسهم. إذن التغيير الأساس هو تغيير ما بنفس القوم والتغيير التابع المترتب على ذلك هو تغيير حالة القوم، النوعية، التاريخية، الاجتماعية ومن الواضح أن المقصود من تغيير ما بالأنفس، تغيير ما بأنفس القوم، بحيث يكون المحتوى الداخلي للقوم كقوم وكأمة وكشجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين، متغيراً، وإلا تغير الفرد الواحد أو الفردين أو الأفراد الثلاثة لا يشكل الأساس لتغيير ما بالقوم، وإنما يكون تغير ما بالقوم تابعاً لتغير ما بأنفسهم كقوم، كأمة، كشجرة مباركة تؤتي أكلها كل حين.

فالمحتوى النفسي والداخلي للأمة لا لهذا الفرد أو لذلك الفرد هو الذي يعتبر أساساً وقاعدة للتغييرات في البناء العلوي للحركة التاريخية كلها.

والإسلام والقرآن الكريم يؤمن بأن العمليتين يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب، عملية صنع الإنسان لمحتواه الداخلي وبناء الإنسان لنفسه، لفكره، لإرادته، لطموحاته، هذا البناء الداخلي يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع البناء الخارجي، مع بناء الأبنية العلوية ولا يمكن أن يفترض انفكاك البناء الخارجي عن البناء الداخلي إلا إذا بقي البناء الخارجي بناءً مهزوزاً متداعياً.

ولهذا سمي الإسلام عملية بناء المحتوى الداخلي إذا اتجهت اتجاهها صالحاً سمّاها "بالجهاد الأكبر". وسمى عملية البناء الخارجي إذا اتجهت اتجاهها صالحاً بعملية "الجهاد الأصغر" وربط الجهاد الأصغر بالجهاد الأكبر، واعتبر أن الجهاد الأصغر إذا فصل عن الجهاد الأكبر فقد محتواه وفقد مضمونه، وفقد قدرته على التغيير الحقيقي على الساحة التاريخية والاجتماعية.

إذن هاتان العمليتان يجب أن تسيرا جنباً إلى جنب. وإذا انفكت احدهما عن الأخرى فقدت حقيقتها ومحتواها، وسمى الإسلام العملية الأولى، عملية بناء المحتوى الداخلي بالجهاد الأكبر تأكيداً على الصفة الأساسية للمحتوى الداخلي وتوضيحاً لهذه الحقيقة، حقيقة أن المحتوى الداخلي للإنسان هو الأساس، ولهذا سمي بالجهاد الأكبر. فإذا بقي الجهاد الأصغر منفصلاً عن الجهاد الأكبر، حينئذ لا يحقق ذلك في الحقيقة أي مضمون تغييري صالح.

القرآن الكريم يعرض لحالة من حالات انفصال عملية البناء الخارجي عن عملية البناء الداخلي، قال سبحانه وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ بِاللَّهِ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (البقرة/ 204-205)، يريد أن يقول بأن الإنسان إذا لم ينفذ بعملية التغيير إلى قلبه، إلى أعماق روحه، إذا لم يبن نفسه بناءً صالحاً لا يمكنه أبداً أن يطرح الكلمات الصالحة، الكلمات الصالحة إنما يمكن أن تتحول إلى بناء صالح في المجتمع إذا نبعت عن قلب يعمر بتلك القيم التي تدل عليها تلك الكلمات، وإلا فتبقى الكلمات مجرد ألفاظ جوفاء دون أن يكون لها مضمون ومحتوى.

فمسألة القلب هي التي تعطي للكلمات معناها، للشعارات أبعادها ولعملية البناء الخارجي أهدافها ومسارها.

إلى هنا عرفنا أن الأساس في حركة التاريخ هو المحتوى الداخلي للإنسان، وهذا المحتوى الداخلي للإنسان يشكل القاعدة. الآن نتساءل:

ما هو الأساس في هذا المحتوى الداخلي نفسه؟ ما هي نقطة البدء في بناء هذا المحتوى الداخلي للإنسان؟ وما هو المحور الذي يستقطب عملية بناء المحتوى الداخلي للإنسانية؟ المحور الذي يستقطب عملية البناء الداخلي للإنسانية هو المثل الأعلى.

عرفنا انّ المحتوى الداخلي للإنسان يجسد الغايات التي تحرك التاريخ، يجسدها من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الإرادة بالتفكير. وهذه الغايات التي تحرك التاريخ يحددها المثل الأعلى. فإنّها جميعاً تنبثق عن وجهة نظر رئيسية إلى مثل أعلى للإنسان في حياته، وللجماعة البشرية في حياتها. وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات التفصيلية، وينبثق عنه هذا الهدف الجزئي وذلك الهدف الجزئي، فالغايات بنفسها محركات للتاريخ وهي بدورها نتاج لقاعدة أعمق منها في المحتوى الداخلي للإنسان وهو المثل الأعلى الذي تتمحور فيه كل تلك الغايات وتعود إليه كل تلك الأهداف.

فبقدر ما يكون المثل الأعلى للجماعة البشرية صالحاً وعالياً وممتداً تكون الغايات الصالحة وممتدة، وبقدر ما يكون هذا المثل الأعلى محدوداً أو منخفضاً تكون الغايات المنبثقة عنه محدودة ومنخفضة أيضاً.

إذن المثل الأعلى هو نقطة البدء في بناء المحتوى الداخلي للجماعة البشرية، وهذا المثل الأعلى يرتبط في الحقيقة بوجهة نظر عامة إلى الحياة والكون، يتحدد من قبل كل جماعة بشرية على أساس وجهة نظرها العامة نحو الحياة والكون، على ضوء ذلك تحدد مثلها الأعلى.

ومن خلال الطاقة الروحية التي تتناسب مع ذلك المثل الأعلى ومع وجهة نظرها إلى الحياة والكون تحقق إرادتها للسير نحو هذا المثل، وفي طريق هذا المثل.

إذن هذا المثل الأعلى هو في الحقيقة أيضاً يتجسد من خلال رؤية فكرية، ومن خلال طاقة روحية تزحف بالإنسان في طريقه، وكل جماعة اختارت مثلها الأعلى، فقد اختارت في الحقيقة سبيلها وطريقها ومنعطقات هذا السبيل وهذا الطريق.

كما رأينا أنّ الحركة التاريخية تتميز عن أي حركة أخرى في الكون بأنّها حركة غائية، حركة هادفة، كذلك تتميز وتتمايز الحركات التاريخية أنفسها بعضها عن بعض بمثلها العليا. فلكل حركة تاريخية مثلها الأعلى، وهذا المثل الأعلى هو الذي يحدد الغايات والأهداف، وهذه الأهداف والغايات هي التي تحدد النشاطات والتحركات ضمن مسار ذلك المثل الأعلى.

والقرآن الكريم والتعبير الديني يطلق على المثل الأعلى في جملة من الحالات اسم الإله، باعتبار أنّ المثل الأعلى هو القائد الأمر المطاع الموجه، وهذه صفات يراها القرآن للإله، ولهذا يعبر عن كل من يكون مثلاً أعلى، كل ما يحتل هذا المركز - مركز المثل الأعلى - يعبر عنه بالإله لأنّه هو الذي يصنع مسار التاريخ. حتى ورد في قوله سبحانه وتعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ) (الفرقان/ 43)، عبّر حتى عن الهوى بأنّه إله حينما يتصاعد هذا الهوى تصاعداً مصطنعاً فيصبح هو المثل الأعلى وهو الغاية القصوى لهذا الفرد أو لذاك. فالمثل العليا بحسب التعبير القرآني والديني هي آلهة في الحقيقة لأنها هي المعبودة حقاً وهي الآمرة والناهية حقاً وهي المحركة حقاً، فهي آلهة في المفهوم الديني والاجتماعي.

وهذه المثل العليا التي تتبناها الجماعات البشرية على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: المثل الأعلى الذي يستمد تصوره من الواقع نفسه، ويكون منتزعاً من واقع ما تعيشه الجماعات البشرية من ظروف وملابسات، أي أنّ الوجود الذهني الذي صاغ المستقبل هنا لم يستطع أن يرتفع على هذا الواقع وأن يتجاوز هذا الواقع بل انتزع مثله الأعلى من هذا الواقع بحدوده، بقيوده، بشؤونه.

وحينما يكون المثل الأعلى منتزعاً عن واقع الجماعة بحدودها وقيودها وشؤونها يصبح حالة تكرارية، يصبح بتعبير آخر محاولة لتجميد هذا الواقع وحمله إلى المستقبل، بدلاً عن التطلع إلى المستقبل يكون في الحقيقة تجميداً لهذا الواقع وتحويلاً لهذا الواقع من حالة نسبية ومن أمر محدود إلى أمر مطلق لأنّ الإنسان يعترضه هدفاً ومثلاً أعلى، وحينما يتحول هذا الواقع من أمر محدود إلى هدف مطلق، إلى حقيقة مطلقة لا يتصور الإنسان شيئاً وراءها، حينما يتحول إلى ذلك، سوف تكون حركة التاريخ حركة تكرارية سوف يكون المستقبل تكراراً للواقع، وحيث أنّ هذا الواقع هو نفسه كان تكراراً لحالة سابقة، ولهذا سوف يكون المستقبل تكراراً للواقع وللماضي.

هذا النوع من الآلهة يعتمد على تجميد الواقع وتحويل ظروفه النسبية إلى ظروف مطلقة، لكي لا تستطيع الجماعة البشرية أن تتجاوز الواقع وأن ترتفع بطموحاتها عن هذا الواقع.

